

- ١١٣ -

ناحية ، ولتؤدى دورها - دراسة وعملا - فى موضعها الحقيقى من ناحية أخرى ... وما علىّ أن أكون مصيبا أو مخطئا فى ذلك ، فإنه - على كل حال - رأى يستند إلى دراسة علمية متطورة فى اللغة والأدب ، وربما قد جانبنى فيه التوفيق ، ولكنى مجتهد !

* * *

لقد مرت الدراسات البلاغية قبل السكاكى بمستويات مختلفة من حيث الهدف والكيفية ، ذلك أن هذه الدراسات قد نشأت أولا - شأنها شأن غيرها من العلوم العربية - لخدمة القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه من المفردات والأساليب الغريبة . باستقراء ذلك وتصنيفه ، ويوضح هذه الحقيقة أن أول أثر بلاغى بين أيدينا هو «مجاز القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) ثم استمرت هذه الجهود العلمية المرتبطة بالقرآن بعد ذلك فى القرون الثلاثة التى تلت مجاز أبى عبيدة ، وكلها محاولات لفهم القرآن ومعرفة سر إعجازه - فعلى امتداد هذه القرون تطالعنا كتب مثل «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ت ٢٧٦) و«النكت فى إعجاز القرآن» للرمانى (ت ٢٨٤) و«إعجاز القرآن» للباقلانى (ت ٤٠٣) وغير ذلك من المجهودات الطيبة التى يجمعها كلها أنها تتجه إلى ذلك الأثر الخالد - القرآن - فى محاولات متتابعة لدراسته ، وإن كانت هذه الدراسة فى مجملها ذات طابع عام متناثر ، ترتبط بالجزئيات أكثر من ارتباطها بالنص الكامل . ومحاولة تحليله وتفسيره وحدة واحدة ، للانتهاء من ذلك بقضايا فنية عامة يعتد بها فى النص القرآنى وقيما عداه من النصوص الفنية الأخرى ، كما رأينا ذلك لدى بعض الدارسين فى العصر الحديث من دراسة «التصوير الفنى فى القرآن» و«مشاهد القيامة فى القرآن» وغيرهما .

وفى نفس الوقت قامت دراسات بلاغية أخرى ، لم تكن ذات صبغة دينية ، بل كان لها استقلال فى موضوعاتها وأهدافها اختلفت مستوياته على مدى الزمن ، وبدأت هذه الدراسات مبكرة أيضا بصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠) ومتجاورة مع الدراسات البلاغية القرآنية السابقة ، وظلت متجاورة معها طوال القرون الثلاثة التالية للصحيفة